

# العولمة والتسطيح الثقافي

الأستاذ: عبد الرحمان بن شريط

جامعة الجلفة

## الملخص

يتناول البحث تأثير العولمة على ثقافة المجتمعات التي تتوسع على حسابها وتسعى إلى السيطرة عليها باعتبارها أيديولوجيا عدوانية تعتبر الخصوصية الثقافية للشعوب الحاجز الأكبر أمام نجاح مخططاتها وبذلك فهي توظف كل الأدوات الاقتصادية والسياسية والتكنولوجية من أجل تسويق البديل النيوليبرالي الذي يرى في المجتمعات سوقا لمنتجاته ، والتي يبقى عاجزا على الترويج لها مالم ينجح في طمس معالم الثقافات الأصيلة و ضرب هوياتها من خلال غرس ثقافته الاستهلاكية المادية .

## **Résume :**

Cette recherche porte sur l'impact de la mondialisation sur la culture des communautés classiques et les manœuvres d'expansion qu'utilise cette mondialisation au détriment de ces cultures afin de les contrôler idéologiquement et d'une manière agressive , car la spécificité culturelle des peuples est la plus grande barrière qui peut mettre en péril la réussite des projets mondialistes qui emploient tous les outils économiques, politiques et technologiques pour la promotion de ses objectifs néo-libéral qui ne voit dans ses communautés qu'un marché pour ses produits, et qui demeure incapable d'atteindre ces objectifs à moins qu'il réussit à imposer sa culture matérialiste de consommation.

## الكلمات الدلالية

العولمة – الثقافة – النيوليبرالية – الهوية

## Mots clés

Mondialisation – culture – néo-libéralisme -

## مقدمة

العولمة لغة هي تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله ، ويقال "عولم" الشيء أي جعله عالميا. أما اصطلاحا ونظرا لتعقيد مفهوم العولمة وتشابكه فإن كماً كبيراً من التعاريف حاولت الإلمام بنواحي العولمة المتعددة . وفي هذا الإطار يرى (أنطوني جيدنز 1938-) Antony Giddens بأن " العولمة هي عملية تكثيف العلاقات الاجتماعية عبر العالم على نحو

يرى لتربط التجمعات المحلية المتباعدة بحيث تشكل الأحداث المحلية على مقتضى أحداث تقع على بعد أميال عديدة والعكس بالعكس " فالعولمة تترجم التوسع الجغرافي للمبادلات ومجالاتها . وهي لا تقتصر على السلع فقط ، ولكن تشمل رؤوس الأموال والمهن والخدمات والملكية الفكرية وحتى الإبداع الفني . ويعتبر دور الشركات المتعددة الجنسيات حاسما لأنها الفاعل الحقيقي في تدويل العلاقات الاقتصادية والثقافية من خلال القدرة على امتلاكها ودمجها . ولا يمكن إغفال دور الهيئات الدستورية والسياسية التي واكبت وشجعت هذه الحركة . كما يرجع المحللين السبب في كل هذه التغيرات إلى التقدم الكبير في مجالي المواصلات والإعلام . فالعولمة لا تشكل سوى الامتداد للتفتح الاقتصادي الحاصل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وبهذا فالتغيرات على صعيد النظام الدولي أحدثت منذ التسعينات مزيدا من التبعية المتبادلة بين الدول في الميادين الاقتصادية والاجتماعية.

أما صاحب كتاب "العولمة (مالكوم. واترز) Malcom Waters (1942 - ) فيرى فيها انضغاط للعامل الجغرافي " العولمة هي عملية اجتماعية يتراجع بمقتضاها تأثير

العامل الجغرافي على ترتيب النظم الاجتماعية والثقافية ، وما يصاحب ذلك من تزايد وعي الشعوب بهذه التراجع<sup>1</sup>.

وفي نفس السياق يعرف كل من الكاتبان (سميث وبايليس) (Baylis & Smith) العولمة بأنها تعني ببساطة " عملية الترابط المتزايد بين المجتمعات بحيث أن الأحداث التي تقع في مكان ما من العالم تكون لها -على نحو متزايد- انعكاسات على شعوب ومجتمعات نائية عنها"<sup>2</sup> ويرى (رونالد روبرتسون) (Ronald Robertson) (1940-) في العولمة " انضغاط الزمان والمكان على مستوى العالم وتكثيف الوعي بالعالم ككل مترابط"<sup>3</sup> بمعنى تراجع أثر الفواصل المكانية أي (المسافات) أو الزمانية (فروق التوقيت) على التعامل الدولي ، بحيث لا يمكن فهم العولمة إذا تم

تفسيرها من الزاوية الاقتصادية فقط بل ينبغي النظر إلى انعكاساتها الخطيرة على العديد من المفاهيم والقناعات المطلقة كـمقولي الزمان والمكان ، والسبب في هذا الانضغاط الزمكاني هو السرعة الهائلة

التي أصبحت تطبع كل مظاهر الحياة العصرية ، والتطور الكبير في وسائل الاتصال ، "العولمة هي تحطيم المسافات"<sup>4</sup>، ويتربط عن هذا تكريس مقولة "العالم قرية صغيرة" أي تجاوز القناعات القديمة التي تركز على الاختلاف الثقافي بين الشعوب ، وهذا يمثل رغبة العولمة في بسط يدها على العالم ، مما يستوجب عملية تحضير الذهنيات لذلك .

ومن خلال التعاريف السابقة ندرك بأن هناك توجه نحو دعم الفكرة التي ترى في العالم (الكرة الأرضية) أو الكون كوحدة واحدة ، ومن ثم فالعولمة من وجهة نظرهم هي محاولة لتحقيق ما يشبه الوحدة الكونية وعلى الرغم من ذلك فهم يختلفون فيما بينهم حول تصوراتهم بشأن فكرة التوحيد ذاتها، إذ يذهب بعض المغالين إلى تبني التصور القائل بأن العولمة هي مجموعة العمليات التي يتم من خلالها تجميع شعوب العالم المختلفة في مجتمع كوني واحد أي أنها العملية

<sup>1</sup>Malcom Waters *Globalisation* ; Routledge london 1995 ; p 3

<sup>2</sup>Baylis & Smith *The Globalisation of World politics* Oxford university 2press London 1997 p15

<sup>3</sup>Roland Robertson ; *Globalization : social theory and global culture* ; Sage publications london 1992 P 83

<sup>4</sup> / غسان منير حمزة سنو علي أحمد الطراح ، العولمة والدولة الوطن والمجتمع العالمي دار النهضة العربية ط 1 ص 22 التاريخ غير مذكور

التي تستهدف خلق (هرمية) Hiérarchie أي عالمية يسيطر فيه الأقوياء على الضعفاء سياسيا واقتصاديا وثقافيا أي فرض منطق القوة ومبدأ الهيمنة على بقية الدول ، في حين يقف فريق آخر عند حد القول بأن (التوحيد) هو (الاتساق) ، أي توحيد المعايير أو القيم على المستوى العالمي ، ولعل ذلك التصور الأخير هو الأقرب إلى الواقع ومن ثم فإن العولمة تشير إلى عملية توحيد القيم والمعايير والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على المستوى العالمي. فالعولمة من هذا المنظور تصبح جهدا تركيبيا وتأليفيا بين الثقافات وهذا ما أسماه البعض "النزعة الإنسانية العالمية".

ويرى محمد عابد الجابري " أن العولمة التي يجري الحديث عنها الآن هي نظام ذو أبعاد تتجاوز نطاق الاقتصاد لتشمل مجالات السياسة والفكر ، وهي تشير إلى محاولة تعميم نمط حضاري يخص بلدا بعينه (هو الولايات المتحدة) على بلدان العالم أجمع"<sup>1</sup>. فالعولمة ليست مجرد تطور تلقائي للنظام الرأسمالي ، بل إنها بالدرجة الأولى دعوى لتبني نموذج معين ، وبعبارة أخرى إنها تمثل إيديولوجيا تعكس الإرادة الأمريكية للهيمنة على العالم وأمرته . وانطلاقا من التعاريف التي عرضناها يمكن القول بأن العولمة في مجملها هي : " عملية إرادية وغائية تستهدف من خلالها القوى المهيمنة على النسق العالمي ، الإفادة من الأوضاع الدولية التي ترتبت على التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال والمواصلات ، وزيادة كثافة التفاعلات الدولية ودرجة الاعتماد الدولي المتبادل ، وصورة التوزيع العالمي الراهن للقوة – وما نتج عن ذلك كله من الشعور بانضغاط الزمان والمكان ، وتهاوي الفواصل الإقليمية ، وتزايد الوعي بالعالم ككل متكامل . ، في تحقيق الهيمنة العالمية وذلك من خلال العمل على

فرض أنماطها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمعيشية على بقية مناطق العالم ، تحقيقا لمصالح تلك القوى المسيطرة ، من خلال منظومة متكاملة من الأساليب والأدوات أو الوسائل المتنوعة والمتسندة والمهيأة لتحقيق الهيمنة .

وتجدر الإشارة قبل التقدم في بحثنا حول علاقة العولمة بالثقافة إلى أن مصطلح (العولمة) يحيل من الناحية الاشتقاقية إلى (فعل) فالعولمة ليست مجرد كلمة إسمية تدل على (شيء) كما هو الحال في علاقة الدال بالمندلول ككلمة (حضارة) لأن العولمة تتضمن الإشارة إلى (عملية تأثير) ، ويتضح هذا فيما يقابلها باللغة الفرنسية Mondialisation التي تدل على وجود فعل Action ، فالتفعيلة التي تناسب مصطلح (عولمة) هي (فوعلة) كأن نقول (قولية) أو (برمجة) ، مما يدل على وجود فاعل أو فاعلين ، الأمر الذي يوحي بخطورة هذه المفردة لأنها تعكس نشاطا هادفا ومقصودا لإحداث تغيير على العالم بحسب مخطط مسبق ونية مبيتة تسعى إلى تحقيق مشروع شامل ومتكامل على أصعدة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وخاصة ثقافية ، لأن التحولات الثقافية هي المحك الحقيقي والعامل الأساسي في أي مشروع عولمي يسعى إلى نشر مبادئه وقيمه الليبرالية في العالم.

ومن هنا ندرك خطورة الجانب الثقافي للعولمة ، لأن أنصارها يعلمون بأنهم لا يتوسعون في فراغ ولا ينتشرون في مجال متجانس بل على حساب كيانات ثقافية لها خصوصيات تاريخية وإثنية والدينية التي تشكل ما يسمى (بالهوية الثقافية) ، وعلى هذا الأساس فإن فرضية الاصطدام في طريق المشروع العولمي واردة جدا ، ولذلك فإن حسم معركة

<sup>1</sup> محمد عابد الجابري : (العولمة والهوية الثقافية) ورد في مجلة المستقبل العربي (مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت عدد 228 فبراير 1998 ) ص 128

(الهوية الثقافية) لصالح هذا المشروع يوفر على العولمة مجهودا كبيرا ويحقق لها انتشارا سريعا ودائما عبر العالم وبالتالي يجنبها فرضية الاصطدام أو يقلل من وقعها بشكل كبير ، وهذا ما يحيلنا إلى مدلول (التسطيح) الذي يعني القضاء على (التنوعات) الثقافية التي تمثل الاختلاف الثقافي الطبيعي بين بني البشر والذي تركز عبر العصور مما زاده عمقا وتجذرا وتنوعا في المجتمعات الإنسانية التي يتكون منها العالم أو (العالمية) التي تحترم طبيعة الاختلاف التي باعتباره الميزة البارزة والمُشكلة لفسيفساء ثقافية وحتى طبيعية تظهر في تنوع الأجناس من حيث الأشكال والألوان بين بني البشر ، وما يترتب عنه من اختلاف في العادات والتقاليد واللهجات وغيرها من العناصر المكونة لثقافة كل شعب من هذه الشعوب .

**الإشكالية** ومن هنا تبرز الإشكالية التي يسعى بحثنا للإجابة عنها وهي كشف خطورة (التسطيح الثقافي) ومعرفة الرهانات التي يمثلها في إنجاح المشروع العولمي الذي يهدد بشكل مباشر الموروث الثقافي للشعوب على أساس أن هناك تنافر بين الترميم العولمي من جهة ، والثراء أو التنوع الثقافي من جهة أخرى. فما هي أهمية التسطيح الثقافي بالنسبة للعولمة ؟ وما هي الآليات التي يعتمد عليها لتحقيق ذلك ؟

### العولمة والعالمية

كان لظهور العولمة انعكاسا مباشرا على العديد من المفاهيم والقناعات مما ترتب عنه حدوث كثير من اللبس والخلط بينها وبين الكثير من المصطلحات المتداولة ولهذا تجدر الإشارة ونحن بصدد التعرض لمفهوم العولمة إلى ضرورة التمييز والتفرقة بين (العالمية) (UNIVERSALISME) (والعولمة) Mondialisation لما قد يثيره التقارب والتشابه بين المفهومين من لبس أو غموض قد يؤدي إلى خلط مضلل أو إلى اختلاط في الأفكار والتصورات وفي هذا الإطار يرى الدكتور محمد عمارة: ( أن العالمية هي نزعة إنسانية وتوجه نحو التفاعل بين الحضارات ، والتلاقح بين الثقافات والمقارنة بين الأنساق الفكرية والتعاون والتساند والتكامل بين الأمم والشعوب والدول بحيث يصبح العالم منتدى حضاري ، بينها مساحات كبيرة من المشترك الإنساني العام ، ولكل منها هوية ثقافية تتميز بها ومصالح وطنية وقومية وحضارية واقتصادية وأمنية لا بد من مراعاتها في إطار توازن المصالح)<sup>1</sup>

ويتفق محمد عابد الجابري مع الرأي السابق حيث يرى أن: (العالمية تشير إلى الطموح إلى الارتقاء بالخصوصية إلى المستوى العالمي ، أو بعبارة أخرى هي انفتاح المحلي على ما هو عالمي أو كوني ، وبالتالي فإن نشدان العالمية هو طموح مشروع يعكس الرغبة في الانفتاح على الآخر بهدف تبادل الأخذ والعطاء ، ويهدف الحوار والتعارف والتلاقح بين الحضارات والثقافات وهكذا يمكن النظر إلى العالمية باعتبارها إثراء للهوية الذاتية ، أما العولمة فهي إرادة للهيمنة وبالتالي فهي محاولة لقمع الخصوصيات القومية ، إنها محاولة لاختراق الآخر وسلبه خصوصيته)<sup>2</sup>.

محمد عمارة ، بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية ، مجلة الهلال عدد ماي 2001 ص 128<sup>1</sup>

WWW.ABEDJABRI.COM محمد عابد الجابري ، العولمة والهوية الثقافية ، ص 17 موقع على الإنترنت<sup>2</sup>

أما جيمس روزنو فيرى كذلك أن(العالمية تشير إلى الطموحات أو التطلعات التي تستهدف الوصول إلى حالة تصبح فيها القيم مشتركة ، أو تكون متاحة لكافة أبناء الجنس البشري على اختلاف بيئاتهم وأدوارهم كمواطنين مستهلكين أو منتجين ، وهم يسعون إلى العمل الجماعي مستهدفين حل المشكلات التي تواجههم).<sup>1</sup>

يتضح مما سبق أن مفهوم العالمية ينطوي على معنى إيجابي يتمثل في سعي الشعوب ذاتها نحو التفاعل مع غيرها على المستوى العالمي وصولاً إلى أرضية مشتركة على مستوى البشرية ككل، وبحيث يتاح لكافة الحضارات والثقافات أن تتبادل وأن تتفاعل تأثيراً وتأثراً فيما بينها على نحو متكافئ، وذلك على عكس العولمة التي تستهدف التأثير فقط دون التأثير، أي أنها عملية في اتجاه واحد ، ذات طبيعة إملائية هدفها السعي إلى فرض قيم ومعايير وأنماط ونظم طرف معين على بقية الأطراف الأخرى. ويتضح هذا جلياً في ما جاء على لسان فرانسيس فوكوياما حين يقول ( بعد الآن لن تتواجه سلطة السيادة مع خارجها ، بل ستعمل على توسيع حدودها بصورة تدريجية حتى تصبح شاملة للكافة الأرضية كلها بوصفها مملكتها الحقيقية)<sup>2</sup> ومن هنا ندرك أن العولمة لا تنظر إلى العالم كغاية في حد ذاته بل تتمثله كوسيلة فقط لبلوغ أهدافها ، ولا تدخل معه في حوار بناء يجمعها كشعوب وقبائل لتتعارف ، ومن هنا يمكننا القول بأن العولمة تتمتع بجانب كبير من الأنانية والعدوانية ( لقد راقبنا آلة الحرب .... وهي تحرق في نمط جديد من الأعداء ، نمط لم يعد متمثلاً بدولة أخرى أو حتى نظام آخر، بل هو عدو كيفما اتفق...)<sup>3</sup>

فالعولمة تصطنع أعداء لها تماشياً مع مصالحها وهذا يعكس بشكل واضح أن السيادة بالمعنى الإمبراطوري للعولمة لا تعتمد على احترام الآخرين لها ولا تحتاج إلى الاعتراف بمشروعيتها بل ولا تنتظر ذلك من العالم أجمع ، إنها وحدها في الميدان تصول وتجول غير عابئة بمدى مشروعيتها ومصادقيتها لأن منطق القوة الذي تستند إليه لا يحتاج إلى هذه الاعتبارات ، بل ولا تخدم مصلحته ومخططاته المستقبلية التي تعتمد على إلغاء الآخر وإنكار وجوده ككيان نمطي متميز وله خصوصيات ثقافية أو سياسية أو اجتماعية . ليس ثمة خارج للسوق العالمية بصيغتها المثالية فالكرة الأرضية كلها مجال سيطرتها وبهذا تصبح السيادة بمعنى العولمة هي أن تكون في كل مكان ولست في أي مكان partout et nulle part لأنها لا تنتسب لهيئة سياسية معينة بل تخضع لقوى السوق الاحتكارية التي تخترق الحدود السيادية بالمعنى الحدائي ، ولا تخضع لمقولاتي الزمان والمكان في عالم أصبحت تسيره رقمياً عبر الأثير ، ولا وجود فيه للداخل والخارج ، للعالمي والمحلي ، طالما أن كل هذه المقاييس الثابتة لا معنى لها في مرحلة العولمة التي تدور أينما دارت مصالحها في عالم لم يصبح بالنسبة لها سوى مجال مناورة واستغلال .

كما تتسم الثقافة العولمية بعمق عنصري ، يقضي على كل معنى عالمي في بنيتها وتركيبها، فالنزعة الاحتكارية التي تسيرها لا تترك لها الوقت في التعرف على الآخر أو التعامل معه باعتباره معطي متميز يجب فهمه ومعرفة أهدافه واحتياجاته ، إلا أن هذا العمق العنصري لا يستند إلى معطيات بيولوجية كما كان الأمر من قبل ، فالواقع أصبح يؤكد بأن العنصرية بالمعنى العرقي قد انتهت بشكل ثابت في المجتمعات الحديثة منذ إنهاء العبودية إلى معارك النضال للتحرر

عبد الخالق عبد الله "العولمة: جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها"، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، أكتوبر - نوفمبر 1999 ، ص 51<sup>1</sup>

<sup>2</sup>Fukuyama, Francis , La fin de l'histoire et le dernier homme Paris Flammarion 1994 p:36

مايكل هاردر وأنتوني دي نيغري ، الإمبراطورية ، تعريب فاضل جتكر مكتبة العبيكان، ط1، 2002 ص:282<sup>3</sup>

من الاستعمار وحركات حقوق المدنية ، وكانت نهاية "الأبرتهيد" أي "التمييز العنصري" بمثابة الإعلان الرسمي والتحول التاريخي في القضاء على العنصرية التي أصبحت لا تتناسب مع تطورات العلم وانتشار الوعي والنزعة الإنسانية ، إلا أن ذلك لم يمنع ظهور نمط جديد من العنصرية ، فقد لجأت العولمة لبسط سيادتها إلى استراتيجية جديدة تناسب طموحاتها في التوسع فهي لا ترفع لواء التمايز العرقي والاختلافات السلالية بشكل سافر وواضح لأن ذلك يعيقها ، بل تلجأ إلى نمط جديد من العنصرية يتمثل في أوجه الاختلاف والفروق الثقافية والاجتماعية التي تحمل بشكل مضمحل الاختلافات العرقية ، فالنظرية العنصرية الإمبراطورية للعولمة تقرب بأن الأعراق لا تؤلف وحدات حيوية (بيولوجية) قابلة للعزل ، وبأن الطبيعة يتعذر فصلها إلى أعراق بشرية مختلفة . وتسلم بأن سلوك الأفراد وقابليتهم أو ملكاتهم ليست نتاج دمائهم أو مورثاتهم بل ترجع إلى انتمائهم لثقافات مختلفة محددة تاريخيا أي أنها غير قابلة للتغيير وبالتالي أمرها محسوم بشكل لا رجعة فيه ، وهذا فإن العنصرية العولمية والعنصرية الحديثة أو العرقية تقولان نفس الكلام ، وهذا ما يجعلنا تحت هيمنة السيادة العولمية أمام ما يمكن تسميته بـ "العنصرية الجديدة" "Néo – racisme" .

إن العولمة بهذا الشكل تقيم حواجز أشد وأخطر من الحواجز العرقية إنها الحواجز الثقافية التي تعمل على تحريكها في كل مكان سعيا منها إلى إضعاف الشعوب والأمم لتصبح أكثر وأسهل انصياعا لحكمها وسيادتها فالفرق مثلا بين "التوتسي والهوتو" في إفريقيا لا يرجع إلى عوامل عرقية ولسلالية بقدر ما يرجع إلى أسباب ثقافية ، وبالتالي يسهل تحريكه في كل لحظة وإشعال فتيله عند الحاجة بكل سهولة خدمة للأطماع الأمريكية في المنطقة وغيرها من المناطق . وبهذا تطرح العولمة بدائلها الثقافية باعتبارها الحل الأمثل للخروج من حالة الصراع والاقتتال المتواصل التي تسبب فيها التمزقات الثقافية الموروثة ، وذلك من خلال تبني النمط الثقافي العولمي الذي يمتص كل الخلافات الإثنية القائمة ويستبدلها بثقافة الاستهلاك النيوليبرالية بين الجميع . وهذا ما تطبقه كذلك بنجاح في العراق من خلال بعث النعرات لبسط يدها على البترول، فالعنصرية التي تروج لها العولمة تفاضلية تعمل على دمج الآخرين في نظامها ثم تبادر إلى التنسيق بين تلك الفروق في نظام للتحكم<sup>1</sup> . مما يساعد على تشكيل شعوب تميل إلى التحلل والتحول لتصبح جمهورا عديم الشكل مخترق ، فالعنصرية الإمبراطورية تسعى إلى تداخل أوجه الاختلاف ، وإدارة سلسلة من النزاعات الصغيرة في إطار دائرتها المتسعة . فالعولمة بهذا لا تحمل أي مشروع عالمي ، يسهم في إثراء التنوع بين الناس وتشجيع الاختلافات التي تشكل نسيجنا طبيعيا في سيفساء العالم الذي يبحث عن التمازج والتكامل بل تعمل على احتواء الآخرين ومحاصرتهم داخل نمط واحد وذلك بشكل مرحلي يتم عبر ثلاث لحظات :

#### 1// المرحلة الاحتوائية:

وهي اللحظة الاستيعابية التي تتميز بعدم التمييز أي أنها لا تفرق بين عرق أو عقيدة أو جنس أو ثقافة ، ففي هذه المرحلة تتسم باللامبالاة المطلقة فتطرح جانبا كل أوجه الاختلاف الأكثر صلابة وتشددا باعتبارها أمورا غير جوهرية بالنسبة لها مما يسمح بنسبة كبيرة من التداخل بين هذه العوامل مما يجعلها تتمازج إلى درجة أنها تفقد خصوصياتها ، وهذا يعني استحالة تشكل الكيانات الذاتية داخل فضاء العولمة الإمبراطورية المتماوج الناجم عن تحييد السلطة (الدولة الوطنية) ، يمكن إذن اعتبار هذه المرحلة الاستيعابية مرحلة خلط ومزج الغرض منها طمس المعالم والحدود والهويات .

<sup>1</sup> Etienne balibar (Is there a Neo-Racism?) in Etienne balibar and Emmanuel Wallerstein . race Nation class (london : verso .1991) pp 17-28

إنها آلة شبيهة ومفتوحة ذات قابلية غير محدودة تدعو الجميع إلى الانضواء تحت عباءتها ولسان حالها : ( هيا أعطوني فقرائكم ، جياعكم ، مسحوبيكم !!.....) فهي لا تعتمد إلى تحصين حدودها وغلق منافذها بل تعمل على اجتذاب الآخرين وإدخالهم في نظامها (المسالمة) مثل دوامة عاتية .

## 2/: المرحلة الانتقائية

وهي اللحظة التفاضلية التي يتم فيها التأكيد على جملة من الفروق المقبولة في إطار الملكوت الإمبراطوري ، ففي الوقت الذي يتم القضاء على الجانب القانوني والحقوق للاختلافات يتم في نفس الوقت الاحتفال بالجوانب الثقافية لهذه الفروق، وبهذا التصنيف لا تشكل خطرا على آلية الإمبراطورية الاحتوائية طالما أنها فروق غير تصادمية ، فمنذ نهاية الحرب الباردة إعادة بعث العديد من الهويات العرقية وترتيبها بدعم من الولايات المتحدة والأمم المتحدة وهيئات عالمية أخرى ، فثمة لغات محلية وأسماء وأماكن تقليدية وحرف يدوية وغيرها يجري الاحتفال بها وتمجيدها بوصفها أدوات أساسية للانتقال من الاشتراكية إلى الرأسمالية ، فإمبراطورية لا تصطنع فروقا بل كل ما في الأمر أنها تلتقط ما هو موجود ثم تعمل على توظيفه حسب مصالحها.

## 3/: المرحلة التوجيهية

وهي اللحظة الإدارية التي تعتمد فيها العولمة إلى عملية أخرى وهي توجيه هذه الفروقات في اقتصاد "أوامري" عام وترتيبها بشكل هرمي وهذه المنهجية تختلف جذريا عن الأسلوب الاستعماري الذي يجتهد في الحفاظ على هويات نقية (فاشية ، نازية ، فرنسية ...) من خلال التمييز ، فإن العولمة الجديدة تسعى إلى تحقيق أهدافها عن طريق التعديل والمزج. يقول جيل دولوز Gilles Deleuze 1925-1995 مشبها هذه العملية : ( مثل قالب يتشوه ذاتيا ويتغير باستمرار ، من لحظة إلى أخرى أو مثل الغريال يتبدل عياره من نقطة إلى النقطة التي تليها).<sup>1</sup>

يطرح الكولونيالي معادلة بسيطة ذات حل وحيد أما الإمبراطوري فيواجهه متغيرات معقدة تتيح حلول عديدة غير كاملة ولكنها ناجحة وبالمقارنة يمكن القول بأن الاستعماري أكثر إيديولوجية أما الإمبراطوري العولمي فهو أكثر نفعية (برغماتية) ، ومن أبرز أمثلة المزج الذي تلجأ إليه العولمة أن رؤساء الورشات bosses كانوا يحرصون على وضع العمال الجدد الحاملين لتقاليد مختلفة معا ولم يتجنبوا هذا خشية وقوع انفجار بين العمال ، لأنهم أدركوا أن جمع نسب مدروسة بعناية من خلفيات ثقافية متنوعة في كل ورشة أو منجم يؤدي إلى صيغ قيادية ناجحة لأنها تعيق اتحاد العمال وتفاهمهم نظرا للاختلافات العرقية واللغوية بينهم ، فمن مصلحة أرباب العمل الحفاظ على هذا الاختلاف . وبهذا فالشركات المخترقة للقوميات تتعامل مع كل جماعة عرقية بأسلوب مختلف وبمستويات مغايرة من الاضطهاد لتمييز دوما بين ذوي الأصول (الأوروبية والهندية والأفريقية...) ولكن بشكل غير مباشر وغير مكشوف ، فلن يقوم "الحل" الإمبراطوري على نفي هذه الفروق أو تخفيفها بل ، بالأحرى على تأكيدها وتنظيمها في إطار جهاز قيادي فعال .

فالعولمة تحاول أن تطرح نفسها كبديل للعالمية ، ولكنه بديل احتكاري حصري يسيء للمعاني الإنسانية للعالمية التي تشكل امتدادا وتفتحاً للقيم المحلية ، لأن العولمة تفتقر للتفاعلية الإيجابية طالما أنها تخطط وتدبر ماديا وبرغماتيا ،

<sup>1</sup> Gilles Deleuze, (postscript on control societies) in Negation. trans :Martin joughin (New York : Columbia University Press. 1995) p 179

وتنظر إلى العالم الواسع من زاوية ضيقة. فلا علاقة للمفهومين ببعضهما البعض حتى ولو تشابها لغويا وحرفيا لأن الجانب الاصطلاحي لكل منهما يجعلهما في جوانب عديدة على طرفي نقيض .

إن التغيرات الجذرية والعميقة التي تركتها العولمة على العديد من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم تكن لتمردون أن تنعكس على الجانب الثقافي الشديد الصلة بالفرد ، فدعاة العولمة لم يقتصروا في الترويج لها على المجالات المادية فقط ولكنهم أدركوا أهمية الجوانب الفكرية والثقافية فجعلوا منها ميدانا يجب السيطرة عليه وإخضاعه بدوره لتيار العولمة الجارف ، وذلك لأن التأثير في سلوك الأفراد والجماعات يستلزم بدهاء التأثير في عقولهم وإرادتهم أي ثقافتهم ، فالعولمة جاءت بسلم قيمها ومبرراتها الفكرية ومسوغاتها النظرية لتبسطها على المستوى العالمي فعملت على :

التمكين للنزعة المادية على حساب النزعة الروحية أي تغليب الأمور الحسية على الأمور المعنوية بوجه عام ، وذلك لأن المعايير القيمية هي التي تمثل هوية الإنسان وبالتالي تكون شعوره بذاتيته وتميزه عن الآخرين وهذا لا يتناسب مع ما تطمح إليه العولمة وتسعى من أجله ، ومن هذا التصور كان من المتوقع أن تتجه العولمة بوسائلها المختلفة (السينما العالمية ، والقنوات الفضائية الموجهة) إلى ما يسمى "بالتسطيح الثقافي" التي تتمثل في التركيز على المواد الترفيهية الخالية من كل عمق فكري أو فلسفة نقدية ، ولا يتحقق لها ذلك إلا بتحريك الغرائز والشهوات ومخاطبة المشاعر والعواطف .

ولعل ما يؤكد هذا التوجه قول عبد الإله بلقزيز: (تبدو الثقافة على مستوى من الهزال والفقر والسطحية يثور معه التساؤل المشروع عن مستقبلها الإنساني . وتشبه ثقافة العولمة سائر مواد الاستهلاك : معلبات ثقافية تتضمن مواد مسلوقة جاهزة للاستهلاك ، وشركات إعلامية تتنافس لتقديم سلعتها إلى المستهلك في إخراج مثير يرضعه تحت وطأة إغراء لا يقاوم . فلا وقت للتفكير والتمحيص والتردد النقدي ، وسائر ما يمكن أن يحمي الوعي من السقوط في إغراء الخداع . إذ تنهار ملكة التحوط ويتحول الوعي إلى مجال مستباح لكل أنواع الاختراق ، ثم تتكفل التقنية بهندسة ذلك الإغراء وصناعة أسباب الجاذبية له ، ناهيك عن التفتت الذي سيصيب نظام القيم فيكرس منظومة جديدة من المعايير ترفع قيمة النفعية والفردية الأنانية والمنزع المادي-الغرائزي المجرد من أي محتوى إنساني ، نعم ستغدق ثقافة العولمة على الجسد ما سيفيض عن حاجاته من الإشباع ، تماما مثل العولمة الاقتصادية ، غير أنها ستقتل الروح ، وتذهب بالمحتوى الأخلاقي والإنساني لسلوك الإنسان).<sup>1</sup>

ولكن لا يتحقق للعولمة هدفها هذا بدون القضاء على الخصوصية الثقافية، وذلك بالترويج لفكرة الثقافة العالمية ، لأن هدف العولمة هو تحطيم الحدود الجغرافية بين الشعوب والأمم ، والقضاء على شعور الانتماء والولاء لنسق قيمي معين ، فتعيد رسم الحدود بين أنا والآخر .

ولا يتحقق للعولمة ذلك إلا بالترويج لثقافة إنسانية عالمية تتجاوز الثقافات المحلية وتخرقها باعتبار أن ذلك أمر حتمي لا مفر منه لما حققته الوسائل والتقنيات الحديثة من ثورة في الاتصال تعمل على تشجيع التفاعل بين الشعوب والاحتكاك فيما بينها ، وبالتالي التبشير بثقافة عالمية موحدة . ومن هذا المنطلق ينادي أنصار العولمة بما يسمونه "الوعي العالمي" على حد تعبير تيودور ليفيت، إذ يصبح من المتعين على الإنسان في عصر العولمة أن ينقل اهتمامه أو مجال تفكيره من

عبد الإله بلقزيز ، العولمة والهوية الثقافية ، المستقبل العربي (العدد 229 مارس 1998 ) مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ص: 96 <sup>1</sup>

المستوى الوطني أو القومي إلى المستوى العالمي. وإذا كنا لا ننكر وجود قواسم مشتركة بين الثقافات البشرية إلا أن ذلك لا يلغي الخصوصيات التي يتعين على كل شعب الحفاظ عليها من خلال التمسك بها ، ومن أجل الترويج للعولة الثقافي راهن مهندسو العولة على "الصورة" باعتبارها مادة ثقافية قابلة للتسويق على أوسع نطاق لعدم حاجتها لمصاحبة اللغة كي تنفذ إلى إدراك المتلقي أينما كان فهي تمثل لغة بذاتها ، لأن فعالية الكلمة في المقابل تتوقف على مدى توفر الإطلاع اللغوي في حين لا تحتاج الصورة لهذا الشرط فتحطم بذلك الحاجز اللغوي فبات من الواضح طغيان ثقافة الصورة على حساب ثقافة الكلمة التقليدية مع التراجع الشديد لمعدلات القراءة واندحار ثقافة الكلمة أمام الهجمة الشرسة للإعلام السمعي البصري<sup>1</sup>. وتأميننا لنجاحها عمدت العولة إلى (التمكين لسيادة القيم الغربية) ونقصد بذلك القيم الأمريكية خاصة أو ما يسمى بـ"الأمركة" التي لا تسيطر فقط على وسائل الإعلام وتكنولوجياته بل على عمليات الإنتاج للمادة الإعلامية والثقافية والإعلانية ففي مجال الصحافة العالمية نجد (إمبراطورية روبرت مردوخ) وفي مجال صناعة السينما (استوديوهات هوليوود) وعلى عالم الكمبيوتر (إمبراطورية بيل غيتس) المتمثلة في شركة "مايكروسوفت" الشهيرة ، أما في البث الفضائي التلفزيوني فالسيطرة بلا منازع لـ(قناة CNN) الذائعة الصيت ، أما في صناعة الترفيه بالنسبة للأطفال نجد (شركة ديزني) ، وفي الدعاية وكالات الأنباء العالمية الكبرى التي تتحكم وتحتكر التدفق الإخباري العالمي ( يونيتد بريس ، أسوشيتد بريس) وهذه عينة وغيض من فيض، ومما ساهم في تعميق مفهوم الأمركة كون الولايات المتحدة الأمريكية بلد مختلط الجماعات العرقية والسلالية والدينية والثقافية نظرا للهجرة المتزايدة نحوه، وافتقار الأمريكيين إلى أصالة تاريخية عريقة ، مما ساعد على تقبل الناس للنموذج الأمريكي ونشره في مجتمعاتهم الأصلية ، ناهيك عن الازدهار الاقتصادي الأمريكي وارتفاع مستوى المعيشة وتصدره للعديد من المجالات الفنية والرياضية وخاصة العلمية وفتح جامعاته للباحثين وتشجيعه للإبداع والتطوير التكنولوجي مما جعل أمريكا حلم للعديد من الناس عبر العالم ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية حيث عرفت اللغة الإنجليزية وخاصة اللهجة الأمريكية إقبالا في العديد من المجتمعات ، وما صاحب ذلك من انتصارات للمعسكر الليبرالي مما جعل نمط الحياة الأمريكي محط إعجاب العالم وخاصة أبناء دول الجنوب وإن كانت شدة هذا الإعجاب تراجعت نظرا لأسلوب الغطرسة والهيمنة التي باتت أمريكا تلجأ إليه وخاصة في حروبها الأخيرة وتجاوزها للبيئات والمنظمات الدولية ، مما زاد من ارتفاع مشاعر الكراهية تجاهها ، خاصة لدى الشعوب الإسلامية التي استهدفتها أمريكا من خلال ما أسمته "بالخطر الأخضر" بعدما زال "الخطر الأحمر" المتمثل في الاتحاد السوفياتي .

فالعولة الثقافية في رأي بورديو Bourdieu أصبحت إرهابا ثقافيا أو عنفا ثقافيا يسعى إلى فرض نوع من الهيمنة الثقافية القهرية على العالم ككل ، وهكذا فإن العنف الثقافي هو هجمة إعلامية مكثفة وشرسة تستهدف سحق الثقافات الأخرى وتركيز الأضواء على الثقافة الأمريكية وحدها كي تهبر الأنظار فلا يرى سواها<sup>1</sup>.

ولهذا يصف الجابري تأثير العولة الثقافية على الثقافات المحلية بعملية "الاختراق" التي تتولى (القيام بعملية تسطيح الوعي، واختراق الهوية الثقافية للأفراد والأقوام والأمم، ثقافة جديدة تماما لم يشهد التاريخ من قبل لها مثيلا: ثقافة إشهارية إعلامية سمعية وبصرية تصنع الذوق الاستهلاكي (الشهار التجاري) والرأي السياسي (الدعاية الانتخابية) وتشيد

المرجع السابق ص : 95-196

رؤية خاصة للإنسان والمجتمع والتاريخ، إنها "ثقافة الاختراق" التي تقدمها العولمة بديلا للصراع الإيديولوجي<sup>1</sup>. فهي إذن ثقافة تتميز بالسرعة والقوة والانتشار، مما يسمح لها بإحداث تغييرات عنيفة لا قبل للثقافات المحلية بها من حيث المواجهة والمنافسة خاصة عندما تتجه إلى الفئات الشابة التي تشكل مستقبل الشعوب محدثة بذلك شرخا وتصدعا عميقا يؤدي إلى تعميق صراع الأجيال والإسراع بنتائج الوخيمة على عوامل الاستقرار، مستغلة في ذلك قدراتها التكنولوجية المتطورة باستمرار، والتي تبدو للعديد بأنها مفيدة وإيجابية كاستعمال القنوات الفضائية والإنترنت وغيرها ، مما يحمس البعض إلى الإقبال على غثها وسمينها غير مباليين بعواقبها الوخيمة من حيث سوء الاستعمال وقلة أساليب الاحتياط وضعف الحس النقدي والإعجاب بكل ما هو جديد . إن العولمة تتسبب في اختزال التنوع الثقافي العالمي في ثقافة واحدة تركز هيمنة المركز على الأطراف ، إلا أنها ثقافة هجينة لا شخصية لها ولا روح فيها تتشكل داخل المجتمعات المحلية بصورة مشوهة ومشوهة .

### الخاتمة

ومن خلال هذا التحليل تتضح النوايا الحقيقية للمشروع العولمي الذي لا يتراجع أمام أي خطوط حمراء ولا يتردد في الماضي قدما نحو أهدافه التي لا يعلن عليها صراحة ولكن لا يمكن أن تخفى على من هم خارج المشروع باعتبارهم ضحايا ، إلا أنهم لا يدركونها ولا ينتبهون لمخاطرها غالبا إلا بعد فوات الأوان ، وهذا الأسلوب المتنكر للعولمة جزء من استراتيجيتها التي تختلف بشكل كبير عن الأساليب الاستعمارية التقليدية التي تميل إلى استعراض عضلاتها بشكل سافر .

---

WWW.ABEDJABRI.COM محمد عابد الجابري ،العولمة والهوية الثقافية : موقع على الإنترنت <sup>1</sup>

فالتسطيح الثقافي منهج خطير وأسلوب مكر يهدف إلى تلميع صورة العولمة من خلال بذل جهد (بيداغوجي) يتحرك في خلفية اللاشعور الجماعي بأسلوب استدرجي يعمل على صياغة نفسية المستهلك وتشكيل ذوقه وميولاته ، وإعادة تشكيل أفكاره وأحكامه بشكل يقتل فيه أي قدرة تقييمية وتقديرية تجعله يستند لمرجعياته الثقافية في القبول والرفض ، وبذلك ينخرط ضمن المشروع العولمي ككيان مستهدف عاجز عن التمييز لأنه فقد كل المقومات التي تسمح له بذلك عندما تمكنت الآلة العولمية من إعادة تشكيله ثقافيا أي بحسب معايير الثقافة المادية الاستهلاكية الخاضعة لمنطق السوق بالمعنى الرأسمالي في أبشع صوره .

وعليه فإن التحدي الثقافي الذي تمثله العولمة يضع مجتمعاتنا أمام خيار سهل وصعب في آن واحد ، فهو سهل لأنه خيار بين الذات والآخر فلا مجال فيه للالتباس أو الغموض ، وصعب لأن الآخر يملك كل المعطيات المادية والعلمية والتكنولوجية التي لا تملكها الذات وهي في أمس الحاجة إليها ، وبهذا الشكل فهي ليست مطالبة بمواجهة العولمة للقضاء عليها بل هي مطالبة فقط بالتعامل معها بنديّة راسخة معتمدة في ذلك على الخصوصية الثقافية والمرجعية العقائدية التي تشكل جوهر كيان هويتها من جهة وعلى مقدراتها الطبيعية وثرواتها المادية التي تتوفر عليها دولها ومجتمعاتها بشكل كبير.

## المراجع

- غسان منير حمزة سنو علي أحمد الطراح ، العولمة والدولة. الوطن والمجتمع العالمي دار النهضة العربية ط1
- محمد عابد الجابري : (العولمة والهوية الثقافية) ورد في مجلة المستقبل العربي (مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت عدد 228 فبراير 1998 )
- محمد عمارة ، بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية ، مجلة الهلال عدد ماي 2001
- محمد عابد الجابري ، العولمة والهوية الثقافية ، ص 17 موقع على الإنترنت WWW ABEDJABRI. COM
- عبد الخالق عبد الله "العولمة: جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها"، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، أكتوبر - نوفمبر 1999
- مايكل هاردي وأنطونيودي نيغري ، الإمبراطورية ، تعريب فاضل جتكر مكتبة العبيكان ، ط1 ، 2002
- عبد الإله بلقزيز ، العولمة والهوية الثقافية ، المستقبل العربي (العدد 229 مارس 1998 ) مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت
- مصطفى عبد الغني ، الحيات والتبعية الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1999

- Malcom Waters **Globalisation** ; Routledge london 1995
- Baylis & Smith **The Globalisation of World politics** Oxford university press London 1997
- Roland Robertson ; **Globalization : social theory and global culture** Sage publications london 1992
- Fukuyama, Francis , La fin de l'histoire et le dernier homme Paris Flammarion 1994
- Etienne balibar (Is there a Neo-Racism?) in Etienne balibar and Emmanuel Wallerstein . race Nation class  
(london : verso .1991)
- Gilles Deleuze, (postscript on control societies ) in Negatiation .trans :Martin joughin (New York :  
Columbia University Press. 1995)